جامعة تكريت / كلية التربية للعلوم الإنسانية / اللغة العربية

المرحلة: دكتوراه/ لغة

المادة: مناهج لغوية حديثة

عنوان المحاضرة: تأصيل النظرية الوظيفية

التدريسي: الأستاذ الدكتور قاسم خليل إبراهيم

العام الدراسي :٢٠٢٥-٢٠٢٦

التأصيل الوظيفي للغة

أولاً: مفهوم اللغة عند الوظيفيين:

لعلَّ أهم ما يميز أصـــحاب النظرية الوظيفية ،أنَّهم نظروا إلى اللغة نظرة مختلفة، فهي عندهم وسيلة الإنسان في التبليغ والتواصل ،وهي مرتبطة عندهم بمقومات اجتماعية وثقافية وحضارية، ولا يعني هذا أنَّهم نظروا إلى اللغة على أنَّها أداة تخدم غرضـــاً في المجتمع بل إنَّهم حللوا اللغة بهدف إبراز الوظائف التي كانت مكوناتها البنيوية المختلفة تؤديها في اســـتعمال اللغة بأجمعها ، وهنا يكمن تمييزها من النظريات الأخرى.

فقد شغل تفكير هؤلاء كيفية استعمال اللغة من أجل تحقيق أهداف وغايات معينة، فأخذوا ينظرون إلى اللغة كما ينظر المرء إلى محرك محاولا أن يفهم الوظائف التي تؤديها أجزاؤه المختلفة وكيف تحدد طبيعة جزء معين طبيعة الأجزاء الأخرى.

وقد اختلفت النظرية الوظيفية عن نظرية دي ســوســير فهو قد فصــل بين اللغة والكلام جاعلا من اللغة هدفا لا وسيلة تقود إلى غاية ، كما أنَّه ذهب إلى القول بأنَّ اللغة نظام من العلامات ، في حين تذهب الوظيفية إلى أنَّ اللغة نظام من الوظائف ،وكل وظيفة لها نظام علامات خاص بها فضلاً عن محاولتهم ربط اللغة بالواقع غير اللغوي ،وهو ما استبعده سوسير من نظريته.

لذا يرى ترنكا _أحد أعضاء النظرية الوظيفية_أنَّ اللغة ((نظام لوسائل التعبير المناسبة لهدف ما))

وقد أعلن جاكبسون عن المنحى الوظيفي للغة صراحة حين قال: ((اللغة في الواقع أداة انتظمت بقصد التفكير عن الأفكار)).

تأصيل الوظيفة في التراث اللساني العربي:

لقد أقام اللغويون العرب القدماء ترابطاً بين اللغة ووظيفتها التبليغية على أســـاس تحديد أنَّ التراكيب اللغوية وسائل تعبيرية تواصلية ذات غايات تصل إلى أهداف المتكلمين .

فالجاحظ يرى أنَّ وظيفة الكلام هي تحقيق الاتصـــال بين أفراد المجتمع . ثمَّ يأتي ابن جني بعده فيعرف اللغة تعريفاً وظيفياً ، فيقول((أصـوات يعبر بها كل قوم عن أغراضـهم)). فقوله يعبر كل قوم عن أغراضـــهم ، فهذا إقرار بالوظيفة الاجتماعية والمعرفية والتواصـــلية للغة. ويشـــير عبد القاهر

الجرجاني ، في أكثر من موضع من دلائله إلى أنَّ وظيفة اللغة الأساسية هي نقل مقاصد المتكلم إلى السامع ، ليتم التواصل بين طرفي الخطاب.

و يعرض الإمام فخر الدين الرازي لهذه الوظيفة انطلاقاً من الحاجة إلى التبليغ والتفاهم والتواصل ، فيقول: ((السبب في وضع الألفاظ أنَّ الإنسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته ، بل لابد من التعاون ، ولا تعاون إلا بالتعارف ، ولا تعارف إلا بأسباب كحركات ، أو إشارات ، نقوش ، أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد ، وأيسرها وأفيدها وأعمها الألفاظ)).

ثانياً :النحو عند الوظيفيين:

تنطلق النظرة الوظيفية في دراسة النحو من ثلاثة أبعاد هي: الشكل، والوظيفة ،والسياق، وكان رومان جاكبسون يلح ((على فكرة أنَّ ليس باستطاعتنا أن نحلل اللغة أو النظام النحوي دون الرجوع إلى دلالة الأشكال (المضمون)))، في حين يرى مارتيني أنَّه لابد من أن تتم عملية التحليل اللغوي بشكل متكامل إلى وحدات ذات مضمون دلالي وتعبيري صوتي. كما اعتنت الوظيفة بتحديد وظيفة كل عنصر وعلاقته بباقي العناصر في الكلام ، فلا ينظر إلى الأشياء معزولة ، بل ينظر إليها وهي منتظمة في علاقات قائمة بينها. وعليه يمكن القول بأنَّ النحو الوظيفي عبارة عن محصلة من وظائف متنوعة تركيبية ، ودلالية ، وبنيوية ،وتواصلية متضافرة فيما بينها.

البعد الوظيفي للنحو في التراث اللساني العربي :

إنَّ البعد الوظيفي للنحو كان بارزاً عند القدماء على نحو لايخفى على الدارس المتأمل فيه، وكان يسير جنباً إلى جنب مع البعد الشكلي وعلى نحو متكامل، فقد ظهر عند كثير من القدماء ، لغويين وغي لغويين، اعتناءً بوظيفة الكلمات ، وكان تصنيفهم يدور حول أنماط تجمع بين الشكل والمعنى، وهذه حقيقة أقرَّ بها د.عبده الراجحي ، وتلمسها في منهجهم وبدا فيها مرتضياً لهذا المنهج ، رداً على من تحيز –من اللغويين المعاصرين– لمدارس لسانية غربية ، فقال: ((والمنهج الذي نرتضيه هو الذي يقع في الناحية الأخرى، والذي أصَّله سيبويه وظلَّ يوجه الفكر النحوي في تاريخه الطويل : المعنى هو الأصل في اللغة ، وليس النحو غاية إلّا الوصول إلى المعنى، وكل فصيلة من فصائل النحو، وكل تركيب من تراكيبه ليس مجرد أشكال ومبانٍ ، وإنَّما هي معانٍ تتقمص مباني ،ومن ثَمَّ فإنَّ التحليل يرد المبنى إلى أصله ،ويربطه بمعناه أو يجعله تالياً له)).

وكانت النظرة الوظيفية هي الأساس المعتمد عليه في تنظيم أبواب النحو، فكانت هذه الأبواب تعبيراً عن الوظائف التي تنتظمها اللغة ،وكل وظيفة يعبر عنها شكلياً بطريقة مختلفة ، وقد جمعها سيبويه في الأبواب السبعة الأولى من كتابه، وهي:

١- هذا باب علم ما الكلم من العربية.
٢-هذا باب مجاري أواخر الكلم.
٣-هذا باب المسند والمسند إليه.
٤-هذا باب اللفظ للمعاني .
٥-هذا باب ما يكون في اللفظ من الأغراض.
٦-هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة.
٧-هذا باب ما يحتمل من الشعر.

وهذا التصـــنيف وعلى هذا النحو يصـــور لنا منهجاً وصـــفياً ، يراعي مبدأ التكاملية بين الأبواب في الانتقال من الجزء إلى الكل ، فينتقل خلالها من مبدأ إجرائي يتمثل في الإعراب ثمَّ يؤســـس بعد ذلك علاقة وظيفية بين أجزاء الكلام مراعيا مبدأ الإسناد .

ثمَّ يصدر كارتر حكماً عاماً على منهج سيبويه ، فيقول: ((إنَّ سيبويه بالأساس نحوي وظيفي ، فليس هناك إلا الأســاس الوظيفي الذي يســتطيع بموجبه أن يميز بين أقســام الكلام المتماثلة شــكلاً مثل الأسـماء والصـفات والظروف ...)) .لقد ترسـخ الملمح الوظيفي منذ أن أسـس له سـيبويه ورسـم له الخطوط العامة التي يتضـامن فيها مع الملمح الشكلي البنيوي مشكلين بذلك منهجا متكاملاً ينظر إلى المسائل النحوية من خلاله .

وكذلك نجد ابن السـراج يميز بين الاسـم والفعل من خلال الوظيفة ، فيقول :((إنَّ الاسـم ينعت والفعل لاينعت ،تقول: مررت برجل عاقل، ولا تقول: يضرب عاقل ،فيكون العاقل صفة ليضرب)).

وبالنظر في المبدأ الوظيفي عند القدماء ، لم يكن في الفكر اللســاني العربي من تبنى ملمحاً شـكلياً خالصـاً فالتزمه دون ما سواه ،وكذلك بالمقابل لم يكن هناك من تبنى ملمحا وظيفياً واقتصر عليه، كما هو الحال في الفكر اللساني الغربي الحديث، بل كان المفكر اللساني العربي القديم يستحضر أكثر من ملمح.

فالزجاجي (ت ٣٣٧هـ) يسـتند في تحديد الاسـم على أسـاس شـكلي تارة ،ووظيفي تارة أخرى، وقد يمزج بينهما إن لزم الأمر. فالاسـم عنده ما جاز أن يكون فاعلاً ،أو مفعولاً ، أو دخل عليه حرفٌ من حروف الخفض ، كما أنَّ يشـمل كل ما كان صـالحاً لقبول التنوين ودخول الألف واللام عليه، فضـلاً عن صـلاحيته لأن يكون موصـوفاً ، ومصـغرا ،ومنادى. فمزج الزجاجي هنا بين الأسـاسـين الشـكلي والوظيفي.

وقد أعاد الجرجاني للنحو العربي مفهومه الوظيفي الذي انطلق منه ، للوصـــول إلى وضـــع نظرية متكاملة تجمع بين النحو وعلم المعاني على الوجه الذي تظهر فيه ســـمات النحو الوظيفي وملامحه، وهي نظرية النظم، وهو يستعمل عبارة (المعنى النحوي) للدلالة على البعد الوظيفي للنحو وهو يرى أنَّ الفكر لايتعلق إلَّا بتعلق العلاقات التي هي معاني النحو ، فيقول:((فلا يقوم في وهم ولا يصـــح في عقلٍ أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله ،ولا يتفكر في معنى اســـم من غير أن يريد إعمال فعل فيه ، أو جعله فاعلاً أو مفعولاً أو حالاً أو ماشاكل ذلك)).

ثالثا: الجملة في النحو الوظيفي:

تعد الجملة جانباً من الجوانب التي اعتنت بها النظرية الوظيفية في ضوء((نظرية الاتصال)) لإنتاج الكلام الذي يقوم بالتعبير عن الوظيفة المقصودة، وهي تحقيق الغاية الإبلاغية للغة.

يقول كلاوس هيشـــن: ((من أجمل الأمثلة على وظيفة براغ ،تحليل الجمل تبعاً لمنظورها الوظيفي التواصـــلي))، وقد ((حاول ماشـــيوس انطلاقاً من وظيفة الإخبار للغة أن يحدد وســـائل المتكلم التي يحقق من خلالها قصده الفعلي من الكلام ،ويؤشر للسامع إليها)) وقد أطلق ماشيوس على مقالته اسم (المنظور الوظيفي للجملة) ليرســـم بذلك منهجاً عاماً للوظيفيين بعده مطبقاً ذلك التحليل على البنية التركيبية للإنكليزية والتشيكية. وانتهجت هذه النظرية نهجاً خاصاً في دراسة الجملة مستحضرة التحليل الثلاثي للجملة على أساس ثلاث مستويات ، هي: المستوى النحوي والصرفي، والمستوى الدلالي ، والمســـتوى الكلامي. ويقرر الوظيفيون الحكم بشـــأن قدم المعلومات أو جدتها ، يقول هاليداي((الذي يحدد وضع المعلومات ليس بنية الخطاب بل المتكلم)).

إنَّ تحليل الجملة من وجهة نظر مارتيني يتم في ضوء ثلاثة عناصر ،هي: العنصر المركزي ، أداة التحصـــيل ، أنماط الإلحاق ،أي التكملة. ثمَّ تطورت على يد ســـيمون ديك مســـتعملا ثنائية ((المحور والتعليق)) على ثلاثة مســـتويات ، هي: ١-المســـتوى النحوي :فعل وفاعل ومفعول. ٢-المســـتوى الدلالي: فعل عامل هدف. ٣-المستوى البراغماتي: مسند متمم موضوع بؤرة.

الجملة في التراث العربي:

كـان القـدمـاء رواداً في مجـال التحليـل الوظيفي ، إذ كـانوا يفكرون في كيفيـة الانظـام الوظيفي للوحدات النحوية. كان الاستعمال الأول لمصطلح الجملة في (الكتاب) هو استعمالها بصيغة الجمع، وهي المرة الوحيدة التي اســـتعملها، حين قال:((وليس شـــيئاً يضـــطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهاً ،وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك هاهنا، لأنَّ هذا موضع الجمل)). فالكلام أو الجملة عنده ألفاظ متآلفة تحقق معنى يحســـن الســـكوت عليه، قال: ((ألا ترى أنَّك لو قلت :فيها عبدالله، حســـن

السكوت ،وكان كلاماً مستقيماً كما حسن واستغنى في قولك: هذا عبدالله)). وربما كان أول استعمال لمصطلح (الجملة)نجده عند المبرد،فقال: ((إنَّما كان الفاعل رفعاً لأنَّه هو الفعل جملة يحسن السكوت عليها وتجب بها الفائدة للمخاطب)). كما استعمل ابن السراج مصطلح (الجملة المفيدة) ،فقال: ((الجمل المفيدة على ضربين: إما فعل وفاعل ،وإما مبتدأ وخبر)). ويتبين مما تقدم أنَّ الإفادة وحسن السكوت أبرز ما اشترطه النحاة في تحديد مفهوم الجملة وظيفياً ، يقول ابن هشام: ((الكلام هو القول المفيد بالقصد والمراد بالمفيد ما دلَّ على معنى يحسن السكوت عليه)). كما تظهر عناية القدماء بالبعد الوظيفي للجملة عبر حديثهم عن الإسناد ، فعلاج سيبويه للإسناد كان انطلاقاً من البعد التواصلي نفسه الذي انطلقت منه المدرسة الوظيفية الحديثة، إذ كان مراعياً للأبعاد التداولية حتى تحصل تمام الفائدة في إبلاغ المخاطب ، فهو في الإسناد يراعي أطراف العملية الاتصالية من (متكلمين، ومتلقين، وإنتاج الكلام ، وتأويله)) وهذا ما أكدته وظيفية ماشيوس ، فكان توظيف الرموز الكلامية عنده يرتبط بثلاثة مكونات للموقف الكلامي وهي المتكلم والسامع ثم الأشياء)) .

ثم تناول سيبويه عقد ربط وظيفي بين الخبر والفعل مبيناً التشابه بينهما حين شبه المبتدأ والخبر بالعلاقة بين الجار والمجرور والفعل والفاعل على أساس وظيفي يتناول بيان وظيفة العامل ورتبته، وهو ما أقرته النظرية الوظيفية ، وجعلت من ذلك معياراً للعملية الإسنادية ، يقول مارتيني ((الأفعال مونيمات متخصصة في التوظيف الإخباري)). ولم يأخذ النحاة بهذين المصطلحين بعد سيبويه وإن أداروهما في كتبهم ، وإنَّما استعملوا ما يقابلهما من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل وغيرهما .